مجلة الدراسات الإسلامية، المجلد 28، العدد (2)، ص ص 79 - 102، الرياض (2016م/ 1437هـ)

أثر القراءات المتواترة في القصص القرآني (قصص النساء أنموذجا)

نمشة بنت عبد الله الطوالة*

جامعة الأميرة نورة بنت عبد الرحمن

(قدم للنشر في 25/ 06/ 1436هـ؛ وقبل للنشر في 28/ 07/ 1436هـ)

المستخلص: يتناول هذا البحث قصص النساء التي ورد ذكرها في القرآن الكريم مما اختلف القراء العشرة في قراءة بعض آياتها، وكان لاختلافهم أثر في معنى القصة، ثم توجيه هذه القراءات، وبيان ثمرة هذا الاختلاف في القصة القرآنية، وقد تكون البحث من تمهيد، وستة مباحث، وخاتمة. ومن أبرز نتائج البحث: أن اختلاف القراءات يُضيف نكتاً بلاغية، ولطائف بيانيه لسياق القصة القرآنية، وأنه ترتب على اختلاف القراءات في بعض آيات القصص ما يوهم الاختلاف والتعارض في معنى الآية، وأن الاهتمام بالإعجاز البياني للقرآن الكريم، من خلال تلمس ما يترتب على اختلاف القراءات من المعاني والفوائد.

الكلمات الافتتاحية: القصص القرآني، القراءات، اختلف القراء العشرة، قصص النساء.

The Impact of Quranic Reading Variations on Quranic Stories With Specific Reference to Stories about Women

Namshah Abdullah Al-Twaalah*

Princess Nora Bint Abdul Rahman University

(Received 14/04/2015; accepted for publication 17/05/2015.)

Abstract: This research studies the stories of women in the Qur'an, namely the stories with variations in reading specific verses according to the Ten Ways of Quranic Readings. The reading variations give rise to differences in understanding the stories. The research also studies the orientation of the readings as well as their impact of the differences on the Qur'anic stories. It consists of an introduction, six sections and a conclusion. Among the important findings of the research are the following: - Reading variations are a source of rhetorical, contextual anecdotes. - Reading variations of some verses might suggest contradictions in meaning. - In the light of varied understandings resulting from the reading variations, due attention should be given to the study of rhetorical eloquence in the Qur'an.

Keywords: Qur'an – Qur'anic stories – Qur'anic readings – Ten Quranic Readings – Women's stories.

(*) أستاذ مشارك، قسم القراءات القرآنية، كلية الآداب، جامعة الأميرة نورة بنت عبدالرحمن

الرياض، المملكة العربية السعودية، ص.ب (122180) الرمز (11721)

البريد الإلكتروني: dntw@hotmail.com

(*)Associate Professor, Department of Koranic readings, College of Arts, Princess Nora Bint Abdul Rahman University.

Riyadh, KSA, p.o box:(122180), Postal Code: (11721)

e-mail: dntw@hotmail.com

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليما كثيرا...

أما بعد:

فإن القرآن حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، والصراط المستقيم، من عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم، لا تزيغ به الأهواء، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق عن كثرة الرد. وقد دعا ﷻ عباده إلى التدبر في هذا الكتاب، وبين أن التدبر مقصود بإنزال القرآن، فقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ (ص: 29).

ويعدّ القصص القرآني من أهم الموضوعات القرآنية التي نُص على ضرورة التفكر فيها، فقد أمر الله ﷻ رسوله ﷺ أن يقص ما أوحي إليه، فقال تعالى: ﴿فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الأعراف: 176). وذكر أن قصص القرآن الكريم هو أحسن القصص، فقال تعالى: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾ (يوسف: 3).

ولما في القراءات المتواترة الواردة في القصص القرآن زيادة نكت بلاغية، ولطائف بيانيه، رغبت الباحثة في إلقاء الضوء على مظهر من مظاهر الإعجاز البياني للقرآن الكريم، فأتى هذا البحث، وهو بعنوان (أثر اختلاف القراءات المتواترة في القصص القرآني «قصص النساء أنموذجاً»).

أهمية البحث:

إبراز أثر اختلاف القراءات المتواترة في سياق القصص القرآني ومعانيه.

حدود البحث:

القراءات العشر المتواترة الواردة في الآيات التي تناولت قصص النساء مما له أثر في المعنى من ناحية البيان والبلاغة[1].

أهداف البحث:

1 – الوقوف على أثر اختلاف القراءات في القصص القرآني.

2 – الإسهام في بيان بعض المسائل المشتركة بين مباحث علوم القرآن.

3 – إلقاء الضوء على مظهر من مظاهر الإعجاز البياني للقرآن الكريم.

الدراسات السابقة:

لم أجد بعد البحث، من تناول هذا الموضوع بدراسة مستقلة، إلا ما كان مبثوثا في كتب التفسير،

(1) المقصود بذلك ما كان من خلاف للقراء في فرش الحروف، أما ما كان من خلاف في أبواب الأصول، كالخلاف في مقدار المدود والصلة والإمالة وغيره فلا مدخل له في هذا البحث.

وكتب توجيه القراءات.

خطة البحث:

يتكون البحث من تمهيد، وستة مباحث، وخاتمة، وهي:

- **التمهيد:** في تعريف القصة، ومفهوم القصص القرآني، وفوائد اختلاف القراءات في بعض آيات القصص القرآني.
- **المبحث الأول:** القراءات الواردة في قصة امرأة إبراهيم عليه السلام.
- **المبحث الثاني:** القراءات الواردة في قصة امرأة لوط عليه السلام.
- **المبحث الثالث:** القراءات الواردة في قصة امرأة عمران.
- **المبحث الرابع:** القراءات الواردة في قصة مريم عليها السلام.
- **المبحث الخامس:** القراءات الواردة في قصة أم جميل حمّالة الحطب.
- **المبحث السادس:** القراءات الواردة في قصة أمهات المؤمنين، رضي الله عنهن.
- **الخاتمة:** وفيها النتائج.

منهج البحث:

سلكت في هذا البحث المنهج الاستقرائي التحليلي.

إجراءات البحث:

1 – استقراء كتب القراءات وتوجيهها؛ لحصر القراءات المتواترة الواردة في آيات قصص النساء، التي ورد فيها خلاف للقراء العشرة.

2 – اقتصرت على ذكر القراءات المتواترة مما له أثر في المعنى.

3 – توجيه القراءات، وبيان معاني آيات التي ورد فيها خلاف بالرجوع إلى كتب التفسير وكتب علوم القرآن.

4 – عزو الآيات القرآنية الواردة في البحث بذكر اسم السورة، ورقم الآية.

5 – تخريج القراءات القرآنية.

6 – تخريج الأحاديث الواردة في البحث من مظانّها، وبيان حكمها.

7 – توثيق جميع النقول.

8 – دفع ما يوهم ظاهره التعارض، والترجيح بين الأقوال فيما يحتاج لذلك.

9 – الترجيح بين الأقوال فيما يحتاج إلى ترجيح.

***

تمهيد

القصة لغة: الخبر، وهو القَصَص، وقصَّ علي خبره يقصه قصا: أورده. قال تعالى: ﴿ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الأعراف: 176). ومنه القصُّ: تتبُّع

الأثر، يقال: قصصت أثره، والقصص: الأثر. قال تعالى: ﴿فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ (الكهف: 64). والقصص: الأخبار المتتبعة. والقَصص: الخبر المقصوص، بالفتح، وُضِع موضعَ المصدر حتى صار أغلب عليه، والقِصص، بكسر القاف: جمع القِصة التي تكتب[2].

أما مفهوم القصص في القرآن الكريم، فتتفاوت فيه وجهات النظر، وذلك نظرًا إلى ما في القصص القرآني من خصائص تميزه عن غيره، فعرفه الرازي بأنه: هو مجموع الكلام المشتمل على ما يهدي إلى الدين، ويرشد إلى الحق، ويأمر بطلب النجاة[3].

وعرّفه عبد الكريم الخطيب بقوله: «أطلق القرآن لفظ القصص على ما حدّث به من أخبار القرون الأولى في مجال الرسالات السماوية، وما كان يقع في محيطها من صراع بين قوى الحق والضلال، وبين مواكب النور وجحافل الظلام»[4]. اهـ.

وعرّفه مناع القطان بأنه: أخباره عن أحوال الأمم الماضية، والنبوات السابقة، والحوادث الواقعة، وقد اشتمل على كثير من وقائع الماضي، وتاريخ الأمم، وذكر البلاد والديار، وتتبع آثار كل قوم، وحكى عنهم صورة ناطقة لما كانوا عليه[5].

وقصص النساء الواردة في القرآن الكريم كانت غالبها من القصة القصيرة التي اشتملت على بعض عناصر القصة، كما أنها تأتي استطراداً ضمن قصة أخرى، ويذكر الجزء الذي يناسب الغرض الذي تساق لأجله القصة العامة، كقصة امرأة إبراهيم، وامرأة لوط، عليهما الصلاة والسلام.

وقد تأتي القصة مشتملة على كل عناصر القصة إلا أنها قصيرة،كقصة حمل مريم عليها السلام بعيسى عليه السلام.

وورد في القصص القرآن ذكر كثير من النساء، منهن من ورد ذكرها بشكل صريح، ومنهن من ورد ذكرها ضمنيا. وقد اقتصرت في هذا البحث على ذكر القصص الذي ورد فيه خلاف للقراء، وكان له أثر في القصة.

واختلاف القراءات في بعض آيات القصص القرآني، فيه فوائد، منها:

1 – اشتمال كثير من القراءات المتواترة على نكت وفوائد تخلو منها القراءات الأخرى.

2 – عرض القصة الواحدة في أساليب وصور بيانية متنوعة، دون أن يختل نظمه، أو يضطرب معناه.

(2) انظر: تاج اللغة وصحاح العربية، للجوهري (3/ 1051) مادة (ق ص ص)، والمفردات، للأصبهاني (ص413، 414)، ولسان العرب، لابن منظور (7/ 73).

(3) انظر: مفاتيح الغيب، للرازي (8/ 74).

(4) القصص القرآني في منطوقه ومفهومه (ص40).

(5) انظر: مباحث في علوم القرآن (ص300).

3 – مظهر من مظاهر الإعجاز البياني في القرآن الكريم[6].

***

المبحث الأول

القراءات الواردة في قصة امرأة إبراهيم عليه السلام

امرأة إبراهيم عليه السلام هي سارة، لم يرد ذكر اسمها صريحا في القرآن، وقد وردت الإشارة إليه في السنة[7].

وورد ذكرها في موضعين من القرآن الكريم[8]. ذكر فيهما تبشيرها بالولد. وذلك أن سارة زوج إبراهيم عليه السلام كانت عقيما لا تلد، فلما أصبحت عجوزاً فاجأتها البشرى بإسحاق عليه السلام.

فقال تعالى: ﴿ وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾ (هود: 71).

واختلف القراء في قراءة قوله تعالى: ﴿ يَعۡقُوبَ ﴾ فقرأ حفص، وابن عامر، وحمزة بالنصب ﴿يَعْقُوبَ﴾، وقرأ الباقون بالرفع ﴿يَعْقُوبُ﴾[9].

وتوجيه قراءة النصب على أوجه:

1 – أن يكون (يعقوب) منصوبا إما على موضع ﴿بإسحاق﴾؛ لأن موضعه النصب، وضُعِف هذا الوجه؛ لأن فيه فصلاً بين الجار والمجرور بالظرف من غير إعادة حرف الجر. أو يكون منصوب بفعل مضمر دلّ عليه الفعل قبله تقديره: «ومن وراء إسحاق وهبنا لها يعقوب» فهو غير داخل في البشارة. ورجحه الفارسي[10]. وهو الأظهر؛ لسلامته من الاعتراضات اللغوية.

2 – أن يكون (يعقوب) مجروراً عطفا على (بإسحاق). وضُعِف هذا الوجه أيضاً؛ لأن فيه فصلاً بين الجار والمجرور بالظرف من غير إعادة حرف الجر. وهو داخل في البشارة.

3 – أن يكون معطوفا معنى على التوهم. وهو – وإن وجد لغة – لا يُقاس عليه، وفيه شذوذ، فلا تُخرج عليه القراءة مع وجود وجه أفصح منه[11].

وأما قراءة الرفع فعلى الابتداء، وقوله تعالى: ﴿ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ﴾ خبر مقدم. والجملة حال داخلة في البشارة. ويجوز أن يرفع بفعل مضمر. والمعنى: ويأتي من وراء إسحاق يعقوب. ولا مدخل له في البشارة[12].

(6) انظر: الدعوة إلى الله تعالى (ص 158).

(7) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلاً ﴾ (النساء:125)، رقم (3358)، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب من فضائل إبراهيم الخليل عليه السلام، رقم (6030).

(8) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم (ص663)، مادة (م ر أ).

(9) انظر: السبعة (ص338)، والنشر (2/ 290)، والإتحاف (ص324).

(10) انظر: الحجة، للفارسي (4/ 367)، والموضح (1/ 655).

(11) انظر: الكشف (1/ 534)، والمحرر الوجيز (3/ 189)، والدر المصون (4/ 114)، واللباب في علوم الكتاب (10/ 525)، وروح المعاني (12/ 98).

(12) انظر: إيضاح الوقف (2/ 715)، والقطع والائتناف=

والأول أظهر؛ لعدم الحاجة فيه لتقدير.

وثمرة الخلاف في هذا أن دخول ذكر يعقوب بالبشارة على بعض أوجه التوجيه، يفيد بأن الله تعالى بشر سارة بيعقوب، وهذا من تمام نعمة الله وكرمه ﷻ واستجابته لدعائها، وبشرت أيضا بأنه سيكون لإسحاق عقب وولد، وهو يعقوب عليهم السلام جميعا[13]. ففيه زيادة مزية وفضل.

وأما على تقدير عدم دخوله في البشارة، فالبشارة كانت بإسحاق، ثم أخبر ﷻ بأن يعقوب سيأتي بعد إسحاق - عليهم الصلاة والسلام جميعا -. وهذا يوافق قوله تعالى: ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ (الصافات:112)، ولم يذكر يعقوب عليه السلام.

* * *

المبحث الثاني

القراءات الواردة في قصة امرأة لوط عليه السلام

امرأة لوط عليه السلام لم يرد ذكر اسمها صريحا في القرآن ولا في السنة. وكانت كافرة تشارك قومها في الإثم، وتدلّهم على أضياف لوط عليه السلام إذا نزلوا به؛ لتعين قومها على المنكر، فأصابها من العذاب ما أصاب قومها.

وورد ذكرها في القرآن الكريم في (7) مواضع[14].

وأشار الله تعالى إلى إعانتها على محاربة زوجها وعداوته، وخيانتها له في الدّين[15]، قال الله ﷻ: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ (التحريم: 10).

ولم يذكر الله من قصتها إلا قصة هلاكها، فأشار إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ ۖ قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ (الحجر:60)، وقوله تعالى: ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ (النمل: 57).

واختلف القراء في قراءة قوله تعالى: ﴿قَدَرْنَا﴾، و﴿قَدَّرْنَاهَا﴾ فقرأ شعبة عن عاصم بتخفيف الدال، وقرأ الباقون بالتشديد[16].

فقراءة تشديد الدال من التقدير، وقراءة تخفيف الدال من (قدر) المجرد. والقَدَر والقَدْر هو ما يقدره الله من القضاء. وقدّر الشيء تقديرا، أي: هيأه، واقتدر عليه.

فقراءة التشديد بمعنى قدّرنا هذا الشيء الواقع، وكتبنا وقوعه. وقراءة التخفيف بمعنى أن هذا الأمر

=(ص392)، والتذكرة (2/ 373)، والكشف (1/ 534، 535)، والتحصيل (3/ 435)، والحجة، لابن زنجلة (ص347)، وعلل الوقوف (2/ 586)، ولطائف الإشارات (6/ 2450).

(13) انظر: اللآلئ الفريدة (3/ 18)، والتفسير الموضوعي لسور القرآن (3/ 477).

(14) (الأعراف: 83)، و(هود: 81)، و(الحجر: 60)، و(النمل: 57)، و(العنكبوت: 33)، و(التحريم: 10).

(15) انظر: جامع البيان (23/ 498).

(16) انظر: الحجة، لابن زنجلة (ص384).

الواقع هو مقدور الله تعالى وقدرته[17].

ويجوز أن تكون القراءتان بمعنى واحد، والمعنى «قضينا وحكمنا أنها من الباقين في العذاب». مع ما في قراءة التشديد من المبالغة المشعرة بتأكيد الحكم[18].

وجاء في تفصيل قصة هلاكها قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ﴾ (هود: 81).

واختلف القراء في قراءة قوله تعالى: ﴿ ٱمۡرَأَتَكَۖ ﴾ فقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، بالرفع ﴿امْرَأَتُكَ﴾، وقرأ الباقون بالنصب ﴿امْرَأَتَكَ﴾[19].

فقراءة رفع ﴿امرأتُك﴾ على أنه بدل من ﴿أحدٌ﴾. والمعنى: «لا تدع - يا لوط - أحدًا من أهلك يلتفت إلا امرأتك فإنها هالكة ستلتفت». فظاهر هذه القراءة أنه أسرى بامرأة لوط ﷺ فالتفتت، فهلكت.

وأما قراءة النصب ﴿امرأتَك﴾ فعلى أنه مستثنى من ﴿بأهلك﴾، وهي استثناء من الإسراء. والمعنى: «أسر - يا لوط - بأهلك إلا امرأتك، فلا تسر بها، واتركها في قومها؛ فإنها من الهالكين»، فنهي عن صُحْبَتها. ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ (الأعراف: 83) أي: من الباقين في الهلاك[20].

فعلى هذا فلوط ﷺ أمر بألا يسري بامرأته معه. قال ابن كثير: «﴿امرأتك﴾ قال الأكثرون: هو استثناء من المثبت، وهو قوله: ﴿فأسر بأهلك﴾ تقديره: ﴿إلا امرأتك﴾، وكذلك قرأها ابن مسعود، ونصب هؤلاء ﴿امرأتك﴾؛ لأنه من مثبت، فوجب نصبه عندهم.

وقال آخرون من القراء والنحاة: هو استثناء من قوله: ﴿ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ ﴾ فجوزوا الرفع والنصب[21]، وذكر هؤلاء وغيرهم من الإسرائيليات أنها خرجت معهم، وأنها لما سمعت الوجبة التفتت، وقالت: واقوماه. فجاءها حجر من السماء فقتلها»[22]. اهـ.

وظاهر القراءتين التعارض. ووجه الجمع بين القراءتين من وجوه:

الأول: ذهب أبو شامة، وابن هشام، إلى أن

(17) انظر: شرح كتاب التوحيد، لابن باز (ص145).

(18) انظر: جامع البيان (17/ 114)، والكشف (2/ 32)، وشرح الهداية (2/ 376)، والموضح (2/ 724)، والمختار في معاني قراءات أهل الأمصار، لابن إدريس (1/ 425)، وعمدة الحفاظ، للسمين الحلبي (3/ 278).

(19) انظر: السبعة (ص338)، والنشر (2/ 290)، والإتحاف (ص325).

(20) انظر: جامع البيان (15/ 424)، والحجة، لابن زنجلة (ص347)، والتحصيل (3/ 438)، والجامع لأحكام القرآن (9/ 72).

(21) المستثنى غير الموجب كالمنفي ونحوه، يجوز فيه النصب، ويجوز فيه الإبدال، وهو الرفع. انظر: المقتضب للمبرد (4/ 394)، وأوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك (2/ 226).

(22) تفسير القرآن العظيم (4/ 339).

الاستثناء على القراءتين منقطع، غير أن أبا شامة جعل قوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ ﴾ استئناف إخبار، فلم يقصد به إخراجها من المأمور بالإسراء بهم ولا من المنهيين عن الالتفات. والمعنى: «لكن امرأتك يجري لها كيت وكيت».

وأما ابن هشام فجعل الاستثناء في الآية من جملة الأمر على القراءتين بدليل سقوط ﴿ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ ﴾ في قراءة ابن مسعود[23]؛ ولأن المراد بالأهل المؤمنون، وإن لم يكونوا من أهل بيته[24].

الثاني: ذهب أبو علي الفارسي إلى أن المستثنى منه هو (أحد) على القراءتين، ويجوز في مثل هذا الرفع والنصب في المستثنى؛ لأن الكلام منفي[25]. والمعنى متفق على القراءتين.

الثالث: جوز أبو شامة أن لوطًا عليه السلام لم يسر بامرأته، ولكنها تبعتهم والتفتت، فأصابها ما أصاب قومها[26].

الرابع: ذهب الشنقيطي إلى أن نتيجة إسراء لوط بأهله، وهو النجاة، لم تدخل فيها امرأته على كلا القولين وما لا فائدة فيه كالعدم ، فيستوي معنى أنه تركها ولم يسر بها أصلا، وأنه سرى بها، وهلكت مع الهالكين. قال رحمه الله: «الظاهر أن وجه الجمع بين القراءتين المذكورتين أن السر في أمر لوط بأن يسري بأهله هو النجاة من العذاب الواقع صبحا بقوم لوط، وامرأة لوط مصيبها ذلك العذاب الذي أصاب قومها لا محالة، فنتيجة إسراء لوط بأهله لم تدخل فيها امرأته على كلا القولين، وما لا فائدة فيه كالعدم، فيستوي معنى أنه تركها ولم يسر بها أصلا، وأنه أسرى بها وهلكت مع الهالكين. فمعنى القولين راجع إلى أنها هالكة، وليس لها نفع في إسراء لوط بأهله، فلا فرق بين كونها بقيت معهم، أو خرجت وأصابها ما أصابهم. فإذا كان الإسراء مع لوط لم ينجها من العذاب، فهي ومن لم يسر معه سواء»[27].

* * *

المبحث الثالث

القراءات الواردة في قصة امرأة عمران

امرأة عمران، هي أم مريم بنت عمران، أم عيسى بن مريم عليه السلام. وقيل: اسمها حَنَّة ابنة فاقوذ بن قتيل.

وقد ورد ذكرها مرة واحدة في القرآن الكريم[28]،

(23) انظر: المصاحف (1/ 319)، والبحر المحيط (5/ 248). وقراءة ابن مسعود شاذة لمخالفتها رسم المصحف.

(24) انظر: إبراز المعاني (ص520)، ومغني اللبيب (ص780).

(25) انظر: الحجة، للفارسي (4/ 369)، وشرح الهداية (2/ 352)، والمختار في معاني قراءات أهل الأمصار (1/ 402)، والكشاف (2/ 325)، واللآلئ الفريدة (3/ 22).

(26) إبراز المعاني (ص520). وانظر: المحرر الوجيز (3/ 196)، والكشاف (2/ 284)، والفريد (2/ 656)، والتحرير والتنوير (13/ 133).

(27) أضواء البيان (3/ 33).

(28) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، لمحمد فؤاد عبد الباقي (ص483)، مادة (ع م ر).

حيث ذكر الله قصة حملها بمريم عليها السلام في سورة آل عمران، ولم يصرح باسمها.

كانت امرأة عمران لا تحمل، فدعت الله تعالى أن يهب لها الولد، فاستجاب الله دعاءها وحملت بمريم عليها السلام، فلما تيقنت من حملها نذرته لله تعالى ليكون مفرغا للعبادة، وخدمة بيت المقدس. فتقبل ربها نذرها، وأنبت ابنتها مريم نباتا حسنا، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (مَا مِن مَوْلُودٍ يُولَدُ إلا مَسَّه الشَّيْطَانُ حِينَ يُولَدُ، فَيَسْتَهِلّ صَارخًا مِنْ مَسِّهِ إيَّاهُ، إلا مَرْيَم وَابْنَهَا)، ثم يقول أبو هريرة: اقرأوا إن شئتم: ﴿ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ (آل عمران:36))[29].

قال تعالى في ذكر قصة نذرها: ﴿ إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٥ فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ (آل عمران:35-36).

وقد اختلف القراء في قراءة قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ ﴾ فقرأ ابن عامر، وشعبة، ويعقوب بسكون العين وضم التاء ﴿وَضَعْتُ﴾، وقرأ الباقون بفتح العين وسكون التاء ﴿وَضَعَتْ﴾[30].

فعلى قراءة ضم التاء ﴿وَضَعْتُ﴾، فالكلام خبر عن امرأة عمران أنها القائلة، وهو من كلامها تخاطب نفسها. وفيه تفويض الأمر لله تعالى، وإظهار ضعف حيلتها، وإعذار منها خوفاً من ألا تكون الأنثى التي وضعتها كافية للوفاء بالنذر. قال القسطلاني: «وهو من كلام أم مريم، خَاطَبَتْ بذلك نفسها، تسلِّيا لها، واعتذارا لله حيث أتت بمولود لا يصلح لما نذرته من سِدَانة بيت المقدس»[31]. اهـ.

وأما على قراءة سكون التاء، فالكلام منفصل خبر من الله عز وجل عن نفسه، أنه العالم - سبحانه - بما وضعت، فجملة ﴿ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ ﴾ على هذه القراءة ليست من كلام امرأة عمران، فهي جملة معترضة، وفيها إشارة إلى كمال علم الله تعالى، وتنبيه على اختيار الله تعالى لكون هذا الحمل أنثى، بالإضافة لما يشعره ذلك من عظم قَدْر هذه المولودة ومكانتها[32].

---

(29) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب: ﴿ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ (آل عمران:36)، رقم (4548)، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب فضائل عيسى عليه السلام، برقم (2366).

(30) انظر: السبعة (ص204)، والنشر (2/ 239)، والإتحاف (ص222).

(31) لطائف الإشارات (4/ 1721). وانظر: التحصيل (2/ 37، 50)، واللآلئ الفريدة (2/ 211).

(32) انظر: الحجة، للفارسي (3/ 32)، والكشف (1/ 340)، والمكتفى (ص200)، والحجة، لابن زنجلة (ص160)، والموضح (1/ 368)، والمختار في معاني قراءات أهل الأمصار (1/ 148)، والتفسير الموضوعي لسور القرآن (1/ 454).

المبحث الرابع

القراءات الواردة في قصة مريم عليها السلام

مريم عليها السلام هي: مريم بنت عمران، وسمّتها أمها بمريم، قال تعالى: ﴿ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ ﴾ (آل عمران: 36). وورد ذكرها في (34) موضعا، منها (11) مرة خطاب أو خبر عن مريم عليها السلام، و(23) مرة خبر عن عيسى بن مريم عليه السلام[33]. وسميت باسمها صراحة في القرآن الكريم في كثير من السور، بل سميت سورة كاملة باسمها عليها السلام. ونسبت إلى أبيها في سورة التحريم حيث قال تعالى: ﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَانَ ٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ (التحريم:12). وهي المرأة الوحيدة التي ورد التصريح باسمها في القرآن الكريم. وسماها الله تعالى صديقة، فقال: ﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ﴾ (المائدة: 75).

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كَمَلَ مِنْ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنْ النِّسَاءِ إِلَّا آسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ)[34]

واختلف في نبوتها على قولين:

الأول: أنها كانت نبيه. واستدلوا على ذلك بأدلة منها:

- قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (آل عمران: 42).

- ذكر مريم عليها السلام مع الأنبياء في سورة مريم.

- وصفها بالصديقة في قوله تعالى: ﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ﴾ (المائدة: 75).

الثاني: أنها ليست نبيه، ونُسب هذا القول للجمهور. وهو الأظهر[35]. واستدلوا بأدلة منها:

- قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُّوحِيٓ إِلَيْهِمْ ﴾ (النحل: 43).

- مقام النبوة يقتضي أموراً تصعب على النساء، كاقتضائها الجهر بالدعوة، ومناظرة أهل الباطل، ومناكفتهم علانية، بالإضافة لما يعرض للمرأة من أمور تعطلها وتضعفها كالولادة، والنفاس، والحيض، وما شاكله[36].

---

(33) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم (ص665)، مادة (م ر ي).

(34) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ ﴾ (آل عمران: 42)، برقم (3434)، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها، رقم (2431).

(35) الظاهر - والله أعلم - أن القول بنبوة مريم عليها السلام، أو بعدم بنوتها مبني على القول بتعريف النبوة. والمسألة تحتاج إلى تحقيق ليس هذا موضوعه.

(36) انظر: فتح الباري (6/ 516).

وقد ذكر الله قصة ولادة مريم عليها السلام، ونشأتها وكفالة زكريا عليه السلام لها في سورة آل عمران، حيث قال تعالى: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ ﴾ (آل عمران: 37).

واختلف القراء في قراءة قوله تعالى: ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ ﴾ فقرأ حمزة والكسائي وحفص وخلف ﴿وَكَفَّلَهَا﴾ بتشديد الفاء، وقصر ﴿زَكَرِيَّا﴾ من غير همز، وروى شعبة ﴿وَكَفَّلَهَا﴾ بتشديد الفاء، و﴿زَكَرِيَّاءَ﴾ بهمزة منصوبة، وقرأ الباقون ﴿وَكَفَلَهَا﴾ بالتخفيف، و﴿زَكَرِيَّاءُ﴾ بهمزة مرفوعة[37].

فعلى قراءة التشديد ﴿وَكَفَّلَهَا﴾ الفعل مسند إلى الله عز وجل؛ والضمير الهاء عائد على مريم عليها السلام مفعول به ثاني، و﴿زَكَرِيَّا﴾ مفعول أول، والكلام متصل، فالفعلين (أنبتها) و(كفلها) لله، تعالى. والمعنى: أن الله سبحانه وتعالى اختار زكريا كافلاً لمريم وضامنا لمصالحها.

ويشهد لهذا ما أخرجه الطبري من أن أحبار بني إسرائيل اختلفوا فيمن يكفل مريم، فاقترعوا عليها، فقرعهم زكريا عليه السلام وضمها الله إليه. فزكريا عليه السلام كفل مريم عليه السلام وضمها إليه بالقرعة التي أخرجها الله له[38].

وأما على قراءة التخفيف فالفعل مسند إلى زكريا عليه السلام، فـ (كفلها) يتعدى إلى مفعول واحد، وهو الضمير المتصل (الهاء)، والفاعل في الفعلين (أنبتها) و(كفلها) مختلف.

والمعنى ضمن زكريا عليه السلام القيام بأمر مريم عليها السلام، ويشهد لهذا ما أخرجه الطبري من أن زكريا كفل مريم بغير اقتراع، ولا استهام عليها، ولا منازعة أحد إياه فيها؛ وإنما كفلها، لأن أمها ماتت بعد موت أبيها، وهي طفلة، وعند زكريا خالتها.

والظاهر أن زكريا عليه السلام طلب كفالة مريم عليها السلام؛ لكونه زوج خالتها، وهو أحق بها، فأبى عليه أحبار بني إسرائيل، فاقترعوا، وألقوا أقلامهم، كما قال تعالى: ﴿ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ ﴾ (آل عمران: 44)، فطفى قلم زكريا عليه السلام ورسبت أقلامهم، فكفلها بتكليف الله له[39].

والكفل في اللغة يدل على الحفظ والضمان، يقال: كفَّلتُ فلاناً، وتكفَّلت به؛ لأنه نصيب مضمون. وأصلها

---

(37) انظر: السبعة (ص204)، والنشر (2/ 239)، والإتحاف (ص173).

(38) انظر: جامع البيان (3/ 241 – 244)، وإعراب القراءات= =السبع (1/ 111)، والحجة، للفارسي (3/ 34).

(39) انظر: المرجع السابق، ومعاني القرآن للفراء (1/ 208)، وشرح الهداية (1/ 217)، والكشف (1/ 341)، والحجة، لابن زنجلة (ص161)، والمختار في معاني قراءات أهل الأمصار (1/ 148)، والتحصيل (2/ 51)، والموضح (1/ 369)، والفريد (1/ 566)، ولطائف الإشارات (4/ 1722).

من (الكِفْل) الذي هو الكساء الحاوي للراكب. والتشديد في (كفّل) للتعدية، ففيه زيادة معنى ليست في التخفيف[40]. قال الفاسي: «التضعيف فيه للتعدية، وكان تكفيل الله إياها لإخراج قلمه دون أقلام المستهمين على كفالتها،على ما روي أن أمها لما ولدتها حملتها إلى المسجد، فوضعتها عند الأحبار، وقالت لهم: دونكم هذه النذيرة. فتنافسوا فيها، فقال لهم زكريا: أنا أحق بها، لأن عندي خالتها. فقالوا: لا. حتى تقترع عليها، فانطلقوا إلى نهر، وألقوا فيه أقلامهم التي يكتبون بها الوحي، فارتفع قلم زكريا عليه السلام، ورسبت أقلامهم. وكان ذلك بإذن الله عز وجل وقضائه، وأسند التكفيل إليه»[41]. اهـ.

وذكر سبحانه وتعالى أيضا قصة تبشيرها بعيسى عليه السلام في مواضع منها:

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ (آل عمران: 45-48).

هذه الآيات من خبر البشارة العظيمة لمريم عليها السلام بعيسى عليه السلام من أنه سيكون لها ولد عظيم الشأن، وله مكانة في الدنيا والآخرة، فأخبر عنه أنه عجيب حيث يولد من غير أبٍ، ويعلمه الله الكتاب والحكمة[42].

واختلف القراء في قراءة قوله تعالى: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ فقرأ ابن عامر بنصب النون ﴿فَيَكُونَ﴾، وقرأ الباقون بالرفع ﴿فَيَكُونُ﴾[43].

وجهت قراءة رفع ﴿فيكونُ﴾ بأوجهٍ هي:

الأول: أن (فيكون) معطوف على (يقول)، وعلى هذا فالأمر حقيقي، وأمره سبحانه وتعالى للشيء بـ(كن) لا يتقدم الوجود، ولا يتأخر عنه، بل القول مع التكوين والوجود، وهو الذي رجحه الطبري والفراء[44]. وهو الراجح؛ لأنه يدل على إثبات صفة الكلام لله سبحانه وتعالى، وعلى تعلق القول والتكوين معاً بالمشيئة خلافا لمن زعم أن القول قديم والتكوين حادث[45].

الثاني: الرفع على الاستئناف، و(فيكون) خبر

(40) انظر: عمدة الحفاظ (3/ 412).

(41) اللآلئ الفريدة (2/ 211). وانظر: الكشف (2/ 34)، والحجة، لابن خالويه (ص108).

(42) انظر: الحجة، لابن زنجلة (ص163)، وشرح الهداية (1/ 220)، والكشف (1/ 344)، والمختار في معاني قراءات أهل الأمصار (1/ 156)، والموضح (1/ 372).

(43) انظر: السبعة (ص 162)، والنشر (2/ 220).

(44) انظر: معاني القرآن، للفراء (1/ 74)، وجامع البيان (1/ 544)، والمحرر الوجيز، لابن عطية (1/ 202).

(45) انظر: الأثر العقدي في تعدد التوجيه الإعرابي لآيات القرآن (3/ 1119).

لمبتدأ محذوف. ورجحه أبو علي الفارسي[46].

الثالث: أن يكون معطوفا معنى لا لفظا على (كن)، فمعناه الخبر لا الأمر.

وأما قراءة ابن عامر فنصب (فيكون)، لأنه واقع في جواب الطلب، فالأمر حقيقي. وهذه القراءة صريحة في نسبة القول إلى الله ﷻ. قال ابن زنجلة: «قرأ ابن عامر: (فيكونَ) نصب، كأنه ذهب إلى أنه الأمر، تقول: أكرم زيدًا فيكرمك»[47]. اهـ.

وأوّل بعضهم معنى هذه الآية على قراءة ابن عامر؛ فقالو: بأن الاعتبار بظاهر اللفظ لا المعنى، فساغ النصب في (فيكون)، لأن (كن) لفظه لفظ الأمر، وإن كان ليس أمرًا حقيقيا[48].

واختلف القراء في قراءة قوله تعالى: ﴿ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ فقرأ نافع وعاصم وأبو جعفر ويعقوب بالياء (وَيُعَلِمُه)، وقرأ الباقون بالنون (وَنُعَلِمُه)[49].

فقراءة الياء على أن الكلام متسق على أسلوب واحد، وقراءة النون على الالتفات. والفاعل في القراءتين هو الله ﷻ، لكن قراءة النون ﴿وَنُعَلِّمُهُ﴾ فيها معنى التعظيم للفاعل، والعظيم فعله عظيم.[50]

قال الطبري: «خبر عن الله بأنه يعلم عيسى الكتاب، وما ذكر أنه يعلمه. وهذا ابتداء خبر من الله ﷻ لمريم ما هو فاعل بالولد الذي بشرها به من الكرامة، ورفعة المنزلة والفضيلة. فقال: كذلك الله يخلق منك ولداً من غير فحل ولا بعل، فيعلمه الكتاب، وهو الخط الذي يخطه بيده، والحكمة، وهي السنة التي نوحيها إليه في غير كتاب، والتوراة، وهي التوراة التي أنزلت على موسى، كانت فيهم من عهد موسى، والإنجيل، إنجيل عيسى، ولم يكن قبله، ولكن الله أخبر مريم قبل خلق عيسى أنه موحيه إليه. وإنما أخبرها بذلك فسماه لها؛ لأنها قد كانت علمت فيما نزل من الكتب أن الله باعث نبياً، يوحى إليه كتاباً اسمه الإنجيل، فأخبرها الله ﷻ أن ذلك النبي ﷺ الذي سمعت بصفته الذي وعد أنبياءه من قبل أنه منزل عليه الكتاب الذي يسمى إنجيلاً، هو الولد الذي وهبه لها، وبشرها به»[51]. اهـ.

وذكر - جلَّ وعلا - أيضا، قصة حمل مريم عليها السلام بعيسى عليه السلام وولادتها له، فقال تعالى: ﴿ قَالَتْ إِنِّيٓ

(46) انظر: الحجة، للفارسي (2/ 208)، والجامع لأحكام القرآن (2/ 88).

(47) الحجة (ص111). وانظر: الحجة، للفارسي (2/ 206)، والكشف (1/ 261)، وشرح الهداية (1/ 179)، والمحرر الوجيز (1/ 202)، والمختار في معاني قراءات أهل الأمصار (1/ 72).

(48) انظر: الحجة، للفارسي (2/ 207) والبحر المحيط (1/ 586)، والدر المصون (2/ 89).

(49) انظر: السبعة (ص206)، والنشر (2/ 240).

(50) انظر: الحجة، لابن زنجلة (ص163).

(51) جامع البيان (6/ 422).

أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ﴿١٩﴾ قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ﴿٢١﴾ فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴾ (مريم: 18 – 25).

واختلف القراء في قراءة قوله تعالى: ﴿لِأَهَبَ﴾ فقرأ نافع بخلف عن قالون، وأبو عمرو ويعقوب بالياء ﴿لِيَهَبَ﴾، وقرأ الباقون بالهمزة ﴿لِأَهَبَ﴾[52].

فعلى قراءة الياء ﴿لِيَهَبَ﴾ فالواهب حقيقة هو الله ﷻ، فجبريل عليه السلام أخبر مريم عليها السلام، بأنه رسول ربها أرسله؛ ليهب لها ﷻ غلامًا زكيًا. فنسبة الفعل له – سبحانه – حقيقة.

وعلى قراءة الهمزة ﴿لِأَهَبَ﴾ فالواهب هو جبريل عليه السلام، أي: أرسلني ربك؛ لأهب أنا – أيها الرسول – لك غلامًا زكيًا. فالواهب هو الله تعالى، وجبريل عليه السلام أُرسل ليبشرها ولينفخ فيها. قال ابن كثير: «خَلقَه بالكلمة التي أرسل بها جبريل عليه السلام إلى مريم، فنفخ فيها من روحه بإذن ربه ﷻ، فكان عيسى بإذن الله ﷻ، وصارت تلك النفخة التي نفخها في جَيْب درعها، فنزلت حتى وَلَجَت فرجها بمنزلة لقاح الأب الأم، والجميع مخلوق لله ﷻ؛ ولهذا قيل لعيسى: إنه كلمة الله وروح منه؛ لأنه لم يكن له أب تولد منه، وإنما هو ناشئ عن الكلمة التي قال له بها: كن، فكان. والروح التي أرسل بها جبريل»[53]. اهـ.

وظاهر القراءتين التعارض؛ لأن الهبة نسبت لله ﷻ على قراءة الياء (ليهب) ونسبت لجبريل عليه السلام ﴿لِأَهَبَ﴾ على قراءة الهمزة. ووجه الجمع بينهما:

أن الهبة نسبت لله تعالى على قراءة الياء (ليهب)؛ لأنه ﷻ هو الواهب حقيقة، وهذا ظاهر.

وأما قراءة الهمزة ﴿لِأَهَبَ﴾ فاختلف في توجيه نسبة الهبة لجبريل عليه السلام مع أن الله تعالى هو الواهب حقيقة، كما دلت عليه قراءة الياء (ليهب) على أوجه منها:

الأول: أن جبريل عليه السلام جعل الهبة من قبله لما كان الإعلام بها من قبله. وهو قول ابن عطية والقرطبي.

الثاني: أن قول جبريل عليه السلام (لأهب لك) على الحكاية، وفي الكلام تقدير. والمعنى: إنما أنا رسول ربك، قال لي: أرسلتك لأهب غلامًا. وهو قول الفراء والزجاج.

(52) انظر: التذكرة (2/ 424)، والنشر (2/ 317)، والإتحاف (ص376).

(53) تفسير القرآن العظيم (2/ 478). وانظر: علل القراءات (1/ 365)، والمختار في معاني قراءات أهل الأمصار (1/ 526)، والتفسير الموضوعي لسور القرآن (4/ 430).

الثالث: أن إسناد الهبة لجبريل عليه السلام؛ لكونه سببًا فيها، فالرسول مترجم عن المرسِل. وهو قول الفارسي والزمخشري ورجحه الشنقيطي[54].

واختلف القراء - أيضا - في قراءة ﴿من تَحْتَهَا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى﴾ (مريم:24).

فقرأ حمزة والكسائي وخلف وحفص وروح ونافع وأبي جعفر ﴿مِنْ تَحْتِهَا﴾ بكسر الميم وجر التاء، والباقون ﴿مَنْ تَحْتَهَا﴾ بفتح الميم ونصب التاء[55].

فقراءة كسر الميم على أن ﴿مِنْ﴾ حرف جر، و﴿تحتها﴾ ظرف مجرور بـ (من). وفاعل النداء ضمير مقدر. وهي أفادت بأن مكان المنادي كان تحت مريم عليها السلام.

ومن قرأ بفتح ميم ﴿مَنْ﴾ على أنه اسم موصول هو فاعل ﴿فناداها﴾ أي: ناداها الذي تحتها، ونصب (تحتها) على الظرفية. وهي أفادت الإشارة إلى المنادي[56].

واختلف المفسرون في المراد بمن نادى مريم عليها السلام؟.

فعلى قراءة كسر الميم والتاء ﴿من تحتِها﴾:

1 - يجوز أن يكون المنادِي جبريل عليه السلام، وقيل في توجيه ذلك: إن مريم عليها السلام كانت على ربوة مرتفعة، وناداها جبريل عليه السلام من مكان منخفض عنها. وقالوا: لم يتكلم عيسى عليه السلام حتى أتت به قومها. وإليه ذهب ابن عباس رضي الله عنهما والضحاك وقتادة والسدي وسعيد بن جبير في إحدى الروايتين عنه. ورجحه القرطبي فقال: «المراد بـ ﴿من﴾ جبريل، ولم يتكلم عيسى حتى أتت به قومها؛ وقاله علقمة والضحاك وقتادة؛ ففي هذا لها آية وأمارة أن هذا من الأمور الخارقة للعادة التي لله فيها مراد عظيم»[57]. اهـ.

2 - ويجوز أن يكون المنادِي عيسى عليه السلام. والمعنى: فناداها المولود الذي وضعته من تحتها ؛ لأنه كان تحتها عند الوضع. وإليه ذهب مجاهد، والحسن، وسعيد بن جبير في الرواية الأخرى عنه، وابن زيد. ورجحه الطبري، وأبو حيان، والشنقيطي[58].

قال الشنقيطي: «أظهر القولين عندي أن الذي

---

(54) انظر: معاني القرآن، للفراء (2/ 164)، ومعاني القرآن، للزجاج (3/ 154)، والحجة، للفارسي (5/ 195)، وإعراب القراءات السبع (2/ 14)، وشرح الهداية (2/ 410)، والكشف (2/ 86)، والحجة، لابن زنجلة (ص44)، والمحرر الوجيز (11/ 20)، والكشاف (2/ 505)، والموضح (2/ 815)، والجامع لأحكام القرآن (11/ 91)، ولطائف الإشارات (7/ 2833)، وأضواء البيان (4/ 56).

(55) انظر: النشر (2/ 317)، والإتحاف (ص377).

(56) انظر: الحجة، للفارسي (5/ 196)، والحجة، لابن زنجلة (ص441)، والموضح (2/ 815)، ولطائف الإشارات= =(7/ 2835).

(57) الجامع لأحكام القرآن (11/ 20).

(58) انظر: جامع البيان (18/ 173)، والبحر المحيط (6/ 183)، وأضواء البيان (3/ 394).

ناداها هو ابنها عيسى، وتدل على ذلك قرينتان: الأولى أن الضمير يرجع إلى أقرب مذكور إلا بدليل صارف عن ذلك يجب الرجوع إليه، وأقرب مذكور في الآية هو عيسى لا جبريل، لأن الله قال: ﴿فحملته﴾، يعني عيسى ﴿فانتبذت به﴾، أي: بعيسى. ثم قال بعده: ﴿فناداها﴾ فالذي يظهر ويتبادر من السياق أنه عيسى عليه السلام. والقرينة الثانية أنها لما جاءت به قومها تحمله، وقالوا لها ما قالوا، أشارت إلى عيسى ليكلموه، كما قال تعالى عنها: ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ (مريم:29)»[59]. اهـ. وكلا القولين محتمل. والله أعلم.

وأما على قراءة فتح الميم والتاء ﴿مَنْ تَحْتَهَا﴾ فالمنادي عيسى عليه السلام حين وضعته، فهو الذي تحتها أنطقه الله كرامة لها؛ ليربط به على قلب أمه، ولتستبشر به، وتحقيقاً لاصطفاء الله تعالى لمريم عليها السلام. قال ابن عاشور: «والمعني بالموصول هو الغلام الذي تحتها. وهذا إرهاص لعيسى وكرامة لأمه عليها السلام. وقيد ﴿مَنْ تَحْتَهَا﴾ لتحقيق ذلك، ولإفادة أنه ناداها عند وضعه قبل أن ترفعه مبادرة للتسلية والبشارة، وتصويرا لتلك الحالة التي هي حالة تمام اتصال الصبي بأمه»[60]. اهـ.

وجُوِّز أن يكون المنادِي جبريل على هذه القراءة، أي: ناداها من مكان منخفض عنها، وقيل: كان جبريل عليه السلام تحتها يقبل الولد كما تقبله القابلة[61].

والراجح الأول؛ لأن الأصل في الضمير أن يرجع إلى أقرب مذكور، وأقرب مذكور هو عيسى عليه السلام، ولأنه يلزم من كون المنادِي جبريل عليه السلام معنىً ينزه عنه الملك، وهو جعله كالقابلة يقبل الولد. والله أعلم.

واختلف القراء في قراءة ﴿تساقط﴾ من قوله تعالى: ﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾ (مريم: 25).

فقرأ حفص ﴿تُسَاقِطْ﴾ بضم التاء، وتخفيف السين، وكسر القاف، وقرأ حمزة ﴿تَسَاقَطْ﴾ بفتح التاء والقاف، وتخفيف السين، وقرأ يعقوب وشعبة في إحدى وجهيه ﴿يَسَّاقَطْ﴾ بالياء التحتية مفتوحة على التذكير، وتشديد السين، وفتح القاف، وقرأ الباقون ﴿تَسَّاقَطْ﴾ بفتح التاء، وتشديد السين، وفتح القاف، وهو الوجه الثاني لشعبة[62].

فعلى قراءة حفص ﴿تُسَاقِطْ﴾ فعل مضارع (ساقط)، والفاعل ضمير مستتر تقديره (هي) يعود على (النخلة)، و(رطبا) مفعول به، و(جنيا) صفة. وأصل السقوط: الوقوع من عُلوٍّ إلى سُفل، وفيه تعدية للفعل[63].

(59) أضواء البيان (3/ 394).

(60) التحرير والتنوير (17/ 87). وانظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن (4/ 434).

(61) انظر: معالم التنزيل، للبغوي (5/ 226).

(62) انظر: النشر (2/ 317)، والإتحاف (ص377).

(63) انظر: المفردات، للراغب الأصفهاني (ص235)، وعمدة=

وعلى قراءة حمزة ﴿تَسَاقَطْ﴾ فعل مضارع، وأصله (تتساقط) فحذفت إحدى التاءين تخفيفا، والفاعل ضمير مستتر يعود على (النخلة). والمفعول به مضمر تقديره: تساقط النخلة عليكِ تمرها، و(رطبا) حال، و(جنيا) صفة.

وعلى قراءة يعقوب ﴿يَسَّاقَطْ﴾ على أنه مضارع (تساقط)، والأصل (يتساقط) فأدغمت التاء في السين تخفيفا، والفاعل ضمير مستتر تقديره (هو) يعود على (الجذع)، والمفعول به مقدر، والتقدير: يسّاقط الجذع عليك تمرا، و(رطبا) حال، و(جنيا) صفة. والتشديد فيه معنى المبالغة والتكثير.

وعلى قراءة الباقين ﴿تَسَّاقَطْ﴾ على أنه مضارع أصله (تتساقط) وأدغمت التاء في السين، والفاعل ضمير يعود على (النخلة)، و(رطبا) حال.

فمن قرأ بالتاء فالضمير للنخلة، ومن قرأ بالياء فالضمير للجذع. وانتصاب رطبا على بعض هذه القراءات للحال، وعلى بعضها الآخر على المفعولية لـ ﴿تساقط﴾.

والفرق بين المفعول به والحال، أن المفعول به يدل على من وقع عليه الفعل، أما الحال فهو وصف لبيان هيئة صاحبه[64].

وأثنى الله تعالى على مريم عليها السلام فقال تعالى: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ﴾ (التحريم: 12).

واختلف القراء في قراءة قوله تعالى: ﴿وَكُتُبِهِۦ﴾ فقرأ أبو عمرو وحفص ويعقوب بالجمع ﴿وَكُتُبِهِ﴾، وقرأ الباقون بالإفراد ﴿وَكِتَابِهِ﴾[65].

فعلى قراءة الجمع ﴿وَكُتُبِهِ﴾ المراد بكتبه التي أنزلت على إبراهيم، وموسى، وداود، وعيسى عليهم الصلاة والسلام، وفي هذا زيادة ذكر فضل، حيث مدح سبحانه وتعالى مريم عليها السلام بالإيمان بكتبه كلها. وأما على قراءة الإفراد ﴿وَكِتَابِهِ﴾ فإما أن يراد به الإفراد، والمقصود الإنجيل، والإيمان به، وإن كان متضمنا للإيمان بجميع الكتب السماوية قبله إلا أن التنصيص على الإيمان بجميع الكتب أبلغ في المدح والثناء.

وقد يراد بالإفراد اسم الجنس. والمقصود بالكتاب: الكتب التي أنزلت على إبراهيم وموسى وداود وعيسى عليهم الصلاة والسلام، فالمعنى فيه كالمعنى في قراءة الجمع، إلا أن لفظ الجمع آكد في الدلالة على الجمع من اسم الجنس[66].

=الحفاظ (2/ 204).

(64) انظر: علل القراءات (1/ 336)، والحجة، للفارسي= =(5/ 198)، والكشف (2/ 87)، وشرح الهداية (2/ 410)، والموضح (2/ 816)، وأضواء البيان (3/ 397).

(65) انظر: النشر (2/ 388)، والإتحاف (ص548).

(66) انظر: جامع البيان (23/ 500)، والموضح (3/ 1280)، والمختار في قراءات أهل الأمصار (2/ 908)، ومعالم التنزيل (8/ 172).

المبحث الخامس

القراءات الواردة في قصة أم جميل حمّالة الحطب

ورد ذكر أم جميل في سورة المسد، واسمها أم جميل أروى بنتُ حرب بن أمية، وهي أخت أبي سفيان ﷺ، وكانت عونًا لزوجها على كفره وجحوده وعناده؛ ولهذا قال تعالى في وصفها: ﴿ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ (المسد:4 – 5).

وقد اختلف القراء في قراءة قوله تعالى: ﴿ حَمَّالَةَ ﴾ فقرأ عاصم بالنصب ﴿حَمَّالَةَ﴾، وقرأ الباقون ﴿حَمَّالَةُ﴾[67].

وقراءة النصب (حمالة) على الحال، وفيه الذّم، كأنها اشتهرت به على تقدير: أذمُّ حمالة الحطب. فالحال تدل على الثبات[68].

وقراءة الرفع (حمالة) على أنه صفة (لامرأته). ويجوز أن تكون هذه الصفة لها في جهنم، أي: تحمل حطب جهنم.

ويجوز أن تكون صفة لها في الدنيا، وقد كانت تعمل في الدنيا بجلب الشوك أو الحَسَك[69] لتضعه في طريق النبي ﷺ، أو وتحمل زوجها على إيذائه، أو النميمة؛ فإنها كانت توقد نار الخصومة. وفيه الإيماء إلى تعليل تعذيبها بذلك[70].

* * *

المبحث السادس

القراءات الواردة في قصة أمهات المؤمنين، رضي الله عنهن

زوجات النبي ﷺ تسع، وقد تحدث القرآن عن بعضهن دون أن يسميهن، ومن الآيات التي تحدث الله – جلّ وعلا – عن زوجات نبيه ﷺ واختلف القراء في قراءته:

أولا: قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (النور: 11).

فقرأ يعقوب بضم الكاف ﴿كُبْرَهُ﴾، وقرأ الباقون بكسر الكاف ﴿كِبْرَهُ﴾[71].

والمعنى على قراءة ضم الكاف ﴿كُبْرَهُ﴾ فالكبر مصدر «كبير» السن، هو العظم، والمعنى تولى معظم الشيء وأكبره، فتحمل معظمه ببدء الخوض فيه. أما على

(67) انظر: النشر (2/ 404)، والإتحاف (ص 606).

(68) انظر: الحجة، لابن زنجلة (ص77)، والكشف (2/ 390)، والمختار في معاني قراءات أهل الأمصار (2/ 999)، والموضح (3/ 1409)، والجامع لأحكام القرآن (20/ 240).

(69) الحَسَكُ: نَباتٌ، له ثَمَرةٌ خَشِنَةٌ تَعْلَقُ ثَمَرتُه بصُوفِ الغَنَمِ ووَبَرِ الإِبِلِ في مَراتِعِها. انظر: المعجم الوسيط (1/ 137) مادة (ح س ك).

(70) انظر: جامع البيان (24/ 678)، والحجة، لابن زنجلة (ص713)، ومعالم التنزيل (8/ 582)، والتحرير والتنوير (31/ 606).

(71) انظر: التذكرة (2/ 459)، والنشر (2/ 248).

قراءة كسر الكاف ﴿كِبْرَهُ﴾ فالكبر مصدر الكبير من الأمور. أي: أكثره. والمعنى تولى وزره وإثمه، فكان يجمعه ويستوشيه ويذيعه ويشيعه.

وقيل: إن القراءتين لغتان بمعنى واحد[72].

ثانيا: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ (التحريم: 3).

فقرأ الكسائي بتخفيف الراء: ﴿عَرَفَ﴾، والباقون بتشديدها ﴿عَرَّفَ﴾[73].

فعلى قراءة التشديد ﴿عَرَّفَ﴾ المفعول الأول مقدر. والمعنى: عرّف رسول الله ﷺ حفصة رضي الله عنها بعضَ الحديث الذي أمرها بكتمه، فأظهرته، وأخبرها به، وأعرض عن بعض على وجه التكرم والإغضاء[74].

وقد ورد في سبب نزول الآية أقوال:

القول الأول: ورد عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: (كان النبي ﷺ يمكث عند زينب بنة جحش، ويشرب عندها عسلاً، فتواصيت أنا وحفصة أن أيَّتنا دخل عليها النبي ﷺ فلتقل: إني أجد منك ريح مَغَافِير[75]، أكلت مغافير. فدخل على إحداهما، فقالت له ذلك. فقال: لا بأس، شربت عسلاً عند زينب بنة جحش، ولن أعود له، فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ﴾ (التحريم:1) إلى قوله: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ (التحريم:4) لعائشة وحفصة، ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا﴾ (التحريم:3) لقوله: (بل شربت عسلاً)[76].

---

(72) انظر: معاني القرآن، للفراء (2/ 247)، وجامع البيان (19/ 116)، وعلل القراءات (2/ 449)، والمختار في معاني قراءات أهل الأمصار (2/ 605)، وتفسير القرآن العظيم (6/ 25)، ومعالم التنزيل (6/ 25)، والتحرير والتنوير (19/ 173).

(73) انظر: السبعة (ص640)، والنشر (2/ 388)، والإتحاف (ص548).

(74) انظر: الحجة، للفارسي (6/ 301)، وعلل القراءات (2/ 697)، والحجة، لابن زنجلة (ص713)، والمختار في معاني قراءات أهل الأمصار (2/ 907)، ولطائف الإشارات (9/ 4043).

(75) المغافير هو: شيء يُنْضِجُه العُرْفط من الغَضَاة، حلو كالنَّاطِف، وله ريح منكرة. انظر: غريب الحديث، لابن الجوزي (2/ 159).

(76) أخرجه البخاري في صحيحه (ص1142)، كتاب الطلاق، باب: لم تحرم ما أحل الله لك، ومسلم في صحيحه (2/ 1100)، كتاب الطلاق، باب وجوب الكفارة على من حرم امرأته، ولم ينو الطلاق.

واختلفت الروايات في تسمية التي احتبس عندها النبي ﷺ وتسمية المتواطئات، فروى أن التي احتبس عندها حفصة رضي الله عنها. والمتواطئات هن باقي أزواج النبي ﷺ - رضي الله عنهن -، وروي أن التي احتبس عندها هي أم سلمة رضي الله عنها. وروي أنها سودة رضي الله عنها. انظر: المراجع السابقة، وسنن أبي داود (3/ 335)، كتاب الأشربة، باب في شرب العسل، والنسائي في السنن (6/ 151)، كتاب الطلاق، باب تأويل هذه الآية على وجه آخر و(7/ 71) كتاب: عشرة النساء، باب الغيرة، وفي=

القول الثاني: ورد عن ابن عباس ﷺ أنه قال: كانت حفصة وعائشة متحابتين، وكانتا زوجتي النبي ﷺ فذهبت حفصة إلى أبيها، فتحدثت عنده، فأرسل النبي ﷺ إلى جاريته، فظلت معه في بيت حفصة، وكان اليوم الذي يأتي فيه عائشة، فرجعت حفصة، فوجدتهما في بيتها، فجعلت تنتظر خروجها، وغارت غيرة شديدة، فأخرج رسول الله ﷺ جاريته، ودخلت حفصة، فقالت: قد رأيت من كان عندك، والله، لقد سُؤتني، فقال النبي ﷺ: والله لأرضينك؛ فإني مسر إليك سرًا فاحفظيه، قالت: ما هو؟ قال: إني أشهدك أن سريتي هذه عليّ حرام رضا لك، وكانت حفصة وعائشة تظاهران على نساء النبي ﷺ، فانطلقت حفصة إلى عائشة، فأسرت إليها أن أبشري إن النبي ﷺ قد حرم عليه فتاته، فلما أخبرت بسر النبي ﷺ أظهر الله ﷻ النبي ﷺ، فأنزل الله على رسوله لما تظاهرتا عليه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ ﴾ ...الآية[77].

وفي رواية للدارقطني: «فقال رسول الله ﷺ: (وهي علي حرام إن قربتها)، فأخبرت حفصة عائشة بذلك، فأعلم الله ﷻ رسوله بذلك، فعرف حفصة بعض ما قالت، قالت له: من أخبرك؟ قال: (نبأني العليم الخبير)... الحديث)[78].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: (دخل رسول الله ﷺ بمارية القبطية سريته ببيت حفصة بنت عمر، فوجدتها معه، فقالت: يا رسول الله: في بيتي من بيوت نسائك؟ قال: فإنها عليّ حرام أن أمسها - يا حفصة - واكتمي هذا علي، فخرجت حتى أتت عائشة، فقالت: يا بنت أبي بكر ألا أبشرك؟ فقالت: بماذا؟ قالت: وجدت مارية مع رسول الله ﷺ في بيتي، فقلت: يا رسول الله في بيتي من بين بيوت نسائك، وبي تفعل هذا من بين نسائك؟ فكان أول السرور أن حرمها على نفسه، ثم قال لي: يا حفصة، ألا أبشرك، فقلت: بلى بأبي وأمي، يارسول الله، فأعلمني أن أباك يلي الأمر من بعده، وأن أبي يلي بعد أبيك، وقد استكتمني ذلك فاكتميه، فأنزل الله ﷻ في ذلك: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ ﴾ مارية، ﴿ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ ﴾ أي: حفصة، ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ أي: لما كان

=التفسير (2/ 450)، وأحمد في مسنده (6/ 59)، والبيهقي في السنن (7/ 353 – 354)، والصنعاني في تفسيره (2/ 301)، وابن أبي حاتم في تفسيره (10/ 3362)، والطبراني في المعجم الكبير (11/ 440)، وأسباب النزول، للواحدي (ص291، 292)، وانظر: تفسير ابن كثير (4/ 387 – 388)، وفتح الباري (9/ 289) وما بعدها، والدر المنثور (8/ 199 – 200).

(77) أخرجه الطبري في جامع البيان (28/ 157)، والبيهقي في سننه=

=(7/ 353)، وأخرجه بنحوه عن عمر ﷺ الطبري في جامع البيان (28/ 158)، والبيهقي في سننه (7/ 353)، والواحدي في أسباب النزول (ص291)، والدارقطني في سننه (4/ 41 – 42).

(78) سنن الدارقطني (4/ 42).

منك، ﴿ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَـٰنِكُمْ ۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِىُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا ﴾ يعني: حفصة، ﴿ فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ ﴾ يعني: عائشة، ﴿ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ﴾ أي: بالقرآن، ﴿ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ ﴾ عرف حفصة ما أظهرت من أمر مارية، ﴿ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ۖ ﴾ عما أخبرت به من أمر أبي بكر وعمر، فلم يثرب عليها، ﴿ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَـٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾...) الحديث[79].

وهذا موافق لقراءة التشديد (عـرّف)؛ إذ المعنـى: عرّف، وأخبر النبي ﷺ حفـصة رضي الله عنها بعـض الحـديث الذي أمرها بكتمه، فأظهرته، وأخبرها به، وأعرض عـن بعض على وجه التكرم والإغضاء.

وأما قراءة الكسائي ﴿عَرَف﴾ فبمعنى الجزاء، أي: جازى عليه، وأغضبه ذلك[80]. وهو مستخدم في الوعيد. يقـال: عرفْـتُ مـا فعـل، أي: سـأجازيه عليـه[81]. قـال الطبري: «﴿عَرَف﴾ بتخفيف الراء بمعنى: عرف لحفـصة بعض ذلك الفعل الذي فعلتـه مـن إفـشائها سرّه، وقـد استكتمها إياه، أي: غضب من ذلـك عليهـا رسـول الله ﷺ، وجازاها عليه مـن قـول القائـل لمـن أسـاء إليـه؛ لأعرفنّ لك يا فلان ما فعلت، بمعنى: لأجازينك عليه، قالوا: جازاها رسول الله ﷺ على ذلك مـن فعلهـا بـأن طلقها»[82].

ويشهد لهذا ما رواه عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ: (طلق حفصة، ثم راجعها)[83]، وعن أنس بن مالك رضي الله عنه: (أن النبي ﷺ طلق حفصة تطليقـة، فأتـاه جبريـل عليه السلام فقال: يا محمد، طلقت حفصة، وهي صوامة قوامة، وهي زوجتك في الجنة فراجعها)[84].

(79) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (3/ 13). قال الهيثمـي في مجمع الزوائد (7/ 127): «رواه الطبراني في الأوسط من طريق موسى بن جعفر بن أبي كثير عن عمه قال الذهبي: مجهول خبره ساقط». اهـ. وعزاه ابـن حجـر في الكـافي الـشافي (ص298) لابن مردوية، وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير (12/ 117) بنحوه عن ابن عباس رضي الله عنهما، وأخرج ابـن أبي حـاتم في تفـسيره (10/ 3362) بعضًا منه عن مجاهد.

(80) انظر: الحجة، لابن زنجلة (ص713)، والتحصيل (6/ 432).

(81) انظر: عمدة الحفاظ (3/ 60).

(82) جامع البيـان (28/ 160)، وانظـر: شرح الهدايـة (2/ 534)، والقاموس (ص1080)، مادة (ع ر ف).

(83) أخرجه أبو داود في سننه (2/ 285)، كتـاب الطـلاق، بـاب في المراجعة، والنسائي في السنن (6/ 213)، كتاب الطلاق، بـاب الرجعة، وابن ماجه في سننه (1/ 650)، كتاب الطـلاق، بـاب حدثنا سويد بن سعيد، والحاكم في المستدرك (2/ 197) وقال: «حـديث صـحيح عـلى شرط الـشيخين» ووافقـه الـذهبي في التلخيص، وأخرجه أحمد في مـسنده (3/ 478)، والطـبراني في المعجم الكبير (17/ 117) عن عاصم بن عمر قال الهيثمـي في مجمع الزوائد (4/ 333) «رواه أحمد والطبراني ورجاله ثقات». اهـ.

(84) أخرجـه: الحـاكم في المـستدرك (4/ 15)، والبيهقـي في سـننه (7/ 322)، وللحـديث روايـات أخـرى. انظـر: المـستدرك (4/ 15)، والمعجـم الأوسـط (1/ 55)، والمعجـم الكبـير=

قال البيضاوي: «عَرَّفَ بَعْضَهُ عرف الرسول ﷺ حفصة بعض ما فعلت. وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ عن إعلام بعض تكرماً، أو جازاها على بعض بتطليقه إياها، وتجاوز عن بعض، ويؤيده قراءة الكسائي بالتخفيف؛ فإنه لا يحتمل هاهنا غيره، لكن المشدد من باب إطلاق اسم المسبب على السبب، والمخفف بالعكس»[85]. اهـ.

***

الخاتمة

أهم النتائج التي توصلت إليها، هي:

1 - اختلاف القراءات يُضيف نكتاً بلاغية، ولطائف بيانيه لسياق القصة القرآنية.

2 - ترتب على اختلاف القراءات في بعض آيات القصص ما يوهم الاختلاف والتعارض في معنى الآية.

3 - الاهتمام بالإعجاز البياني للقرآن الكريم، من خلال تلمس ما يترتب على اختلاف القراءات من المعاني والفوائد.

***

قائمة المصادر والمراجع

الأثر العقدي في تعدد التوجيه الإعرابي لآيات القرآن الكريم. السيف، محمد بن عبد الله. ط1، الرياض: دار التدمرية، 1429هـ - 2008م.

أحكام القرآن. العربي، أبو بكر محمد بن عبد الله. تحقيق: علي محمد البجاوي، د.ط، بيروت: دار المعرفة، د.ت.

أسباب النزول. الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد. تحقيق: د. السيد الجميلي، ط3، بيروت: دار الكتاب العربي، 1410هـ.

أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن. الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار. د.ط، القاهرة: مكتبة ابن تيمية، 1408هـ.

إعراب القراءات السبع وعللها. ابن خالويه، أبو عبد الله الحسين. تحقيق: د. عبد الرحمن العثيمين، ط1، القاهرة: مكتبة الخاني، 1413هـ.

أنوار التنزيل وأسرار التأويل. البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر. تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، ط1، بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1418هـ.

تاج اللغة وصحاح العربية (الصحاح). الجوهري، إسماعيل بن حماد. تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، ط4، بيروت: دار العلم للملايين، 1407هـ - 1987م.

التحرير والتنوير من التفسير. ابن عاشور، محمد الطاهر. د.ط، د.م: د.ن، د.ت.

التحصيل لفوائد كتاب التفصيل الجامع لعلوم التنزيل. المهدوي، أبو العباس أحمد بن عمار. تحقيق: دار الكمال المتحدة، ط1، قطر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1435هـ - 2014م.

تفسير القرآن العظيم. الدمشقي، أبو الفداء إسماعيل بن كثير. تحقيق: سامي بن محمد السلامة، د.ط، الرياض: دار طيبة، 1422هـ - 2002م.

التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم. إعداد: نخبة من علماء التفسير وعلوم القرآن، إشراف: د. مصطفى مسلم، ط1،

=(18/ 365).

(85) أنوار التنزيل وأسرار التأويل (5/ 224).

الشارقة: د.ن، 1431هـ - 2010م.

جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير. ط2، مصر: مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، 1388هـ.

الجامع الترمذي. الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى. تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف، د.ط، القاهرة: مطبعة المدني، 1384هـ.

الحجة للقراء السبعة أئمة الأمصار بالحجاز والعراق والشام الذين ذكرهم أبو بكر ابن مجاهد. الفارسي، أبو علي الحسن، تحقيق: بدر الدين فهوجي، وبشير جويجاتي، ط1، بيروت: دار المأمون للتراث، 1411هـ.

حجة القراءات. ابن زنجلة، أبو زرعة عبدالرحمن. تحقيق: سعيد الأفغاني، ط3، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1402هـ.

الدعوة إلى الله تعالى. آل نواب، عبد الرب نواب الدين، د.ط، دمشق: دار القلم، 1410هـ - 1990م.

روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني. الألوسي، شهاب الدين أبي الفضل محمود. ط4، بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1405هـ - 1985م.

السبعة في القراءات. ابن مجاهد، أحمد بن موسى. تحقيق: د. شوقي شيف، ط2، القاهرة: دار المعارف، 1400هـ.

سنن ابن ماجه. ابن ماجه، أبو عبدالله محمد بن يزيد. مراجعة: محمد فؤاد عبدالباقي، د.ط، مصر: مطبعة عيسى البابي الحلبي، د.ت.

سنن أبي داوود. أبو داوود، سليمان السجستاني. تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، د.ط، بيروت: دار الفكر، د.ت.

سنن الدارقطني. الدارقطني، علي بن عمر. تحقيق: السيد عبدالله المدني، د.ط، القاهرة: دار المحاسن للطباعة، د.ت.

سنن الدارمي. الدارمي، عبدالله بن عبدالرحمن. د.ط، القاهرة: دار الفكر، 1398هـ.

السنن الكبرى. البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين. ط1، الهند: مطبعة دائرة المعارف العثمانية، 1346هـ.

سنن النسائي بشرح جلال الدين السيوطي. النسائي، أحمد بن شعيب. د.ط، بيروت: دار الفكر، 1398هـ.

سنن سعيد بن منصور. الجوزجاني، أبو عثمان سعيد بن منصور. تحقيق: سعد عبد الله الحميد، ط1، السعودية: دار الصميعي للنشر والتوزيع، 1414هـ.

شرح كتاب التوحيد. ابن باز، عبد العزيز بن باز، ط1، الرياض: مكتبة الرشد، 1415هـ - 1995م.

شرح الهداية. المهدوي، أبو العباس أحمد بن عمار. تحقيق: حازم حيدر، ط1، الرياض: مكتبة الرشد، 1416هـ.

صحيح البخاري. البخاري، محمد بن إسماعيل. ط1، الرياض: دار السلام، 1417هـ.

صحيح مسلم. النيسابوري، مسلم بن الحجاج. تعليق: محمد فؤاد عبدالباقي، د.ط، بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت.

علل القراءات. الأزهري، أبو منصور محمد بن أحمد. تحقيق: نوال الحلوة، ط1، د.م: د.ن، 1412هـ.

عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ. السمين الحلبي، أبو العباس أحمد بن يوسف بن محمد. تحقيق: محمد باسل عيون السود، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1417هـ - 1996م.

القصص القرآني في منطوقه ومفهومه مع دراسة تطبيقيه لقصتي آدم ويوسف. الخطيب، عبد الكريم الخطيب. ط2، بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر، 1395هـ - 1975م.

الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحجمها. القيسي، مكي بن أبي طالب، تحقيق: د. محمد الدين رمضان، د.ط، دمشق: مطبوعات مجمع اللغة العربية، 1394هـ.

لسان العرب. ابن منظور، محمد بن مكرم. ط1، بيروت: دار صادر، د.ت.

اللآلئ الفريدة في شرح القصيدة. الفاسي، أبو عبد الله محمد بن الحسن. تحقيق: عبد الرازق بن علي موسى، ط2، الرياض: مكتبة الرشد، 1431هـ - 2010م.

مباحث في علوم القرآن. القطان، مناع القطان. ط7، القاهرة: مكتبة وهبة، د.ت.

المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. الأندلسي، عبد الحق بن عطية. تحقيق: المجلس العلمي بفاس، د.ط، المغرب: مطابع فضالة، د.ت.

المختار في معاني قراءات أهل الأمصار. ابن إدريس، أبو بكر أحمد ابن عبيد الله. ط1، الرياض: مكتبة الرشد، 1428هـ.

المسند. الشيباني، أحمد بن حنبل. د.ط، بيروت: المكتب الإسلامي، د.ت.

معالم التنزيل. البغوي، أبو محمد الحسين بن محمود، حققه: محمد العمر وآخرون، د.ط، الرياض: مكتبة طيبة، د.ت.

معاني القرآن. الفراء، أبو زكريا يحيى، ط2، بيروت: عالم الكتب، 1980م.

معجم الأوسط. الطبراني، أبو القاسم سليمان. تحقيق: محمود الطحان، د.ط، الرياض: مكتبة المعارف، د.ت.

معجم الكبير. الطبراني، أبو القاسم سليمان. تحقيق: حمدي السلفي، د.ط، العراق: وزارة الأوقاف العراقية، د.ت.

المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم. عبد الباقي، محمد فؤاد. د.ط، بيروت: دار الفكر، 1407هـ - 1987م.

مفاتيح الغيب. الرازي، فخر الدين محمد بن عمر الشافعي. ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1421هـ - 2000م.

المفردات في غريب القرآن. الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين ابن محمد. تحقيق: محمد سيد كيلاني، د.ط، بيروت: دار المعرفة، د.ت.

الموضح في وجوه القراءات وعللها. الشيرازي، عبد الله بن نصر بن أبي مريم. تحقيق: د.عمر الكبيسي، ط1، جدة: الجماعة الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم، 1414هـ.

النشر في القراءات العشر. ابن الجزري، محمد بن محمد، تصحيح: علي الضبّاع، د.ط، بيروت: دار الكتب العلمي، د.ت.

* * *